وأخيـراً

أشهر من أفتوا فى عهد الرسول ﷺ من المهاجرين

عمر بن الخطاب - عثمان بن عفان - على بن أبى طالب

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -

عمر بن الخطاب هو الناسك الذى تفجر نسكه حركة، وذكاء وعملا وبناء.

هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه وكان للمتقين إماما.. !!

هو البسيط فى قوة، القوى فى عدل ورحمة.. هو الحاكم المؤمن الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام.

هو من وصفوه بأنه: "إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع.. فقد ورث من طباع أبيه صرامة لا تعرف الوهن، وحسما لايؤرجحه التردد، وتصميما لا يقبل أنصاف الحلول.

إنه صاحب الطبيعة الفذة التى قلما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير.

ولقد أدرك الرسول ﷺ عظمة تلك الطبيعة البشرية التى رزقها عمر.. وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار ولذلك كان يدعو ربه بأن ينصر الإسلام به.ولقد ربح الإسلام بانضمام عمر ﷺ إليه، وقد قال عبد الله بن مسعود:

"مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر"..!

وقد لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.

وعمر هو ثانى الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر الصديق وهو صاحب المقولة الشهيرة: "ماذا تقول لربك غدا إذا أتيته" ومن هذه المقولة يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته موازينها ومعاييرها. وعلى الرغم من أنه كان أقوى من كل شهوة وزلة، حتى لأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ومع هذا يقف بين يدى الله موقف الخشية والحذر والحياء حتى أنه حين يؤم الناس فى الصلاة كان يسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير..!

هو ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأواب الذى لا شىء يؤرقه فى نومه، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأل ربه غداً فى عتاب "لماذا فعلت هذا ياعمر"؟

وحين تولى الخلافة بعد أبى بكر خطب عمر فى الناس قائلا:

"أيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب"..!

وحين أصبح حاكما حرم نفسه من الطيبات المشروعة للحاكمين، ومن الطيبات المشروعة للمواطن العادى.

وقد فعل ذلك بروح المسئولية التى حببت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشبع إذا شبعوا وكان يقول: "كيف يعنينى شأن الناس، إذا لم يصبنى ما يصيبهم"!!

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يولى ابنه "عبد الله" منصبا من مناصب الدولة.. كما رفض أن يرشحه عند موته للخلافة ضمن الستة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم وقال:

"حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر"

وقد وضع مبدأ جليلا فقال:

"من استعمل رجلا لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

وعن الاجتهاد والفتوى فى عهد عمر كما روى عن شريح أنه قال: قال لى عمر بن الخطاب أن أقض بما استبان لك من قضاء رسول الله: فإن لم تعلم من أقضية رسول الله ما يساعدك فاقض بما استبان لك من أقضية أئمة المجتهدين، فإن لم تعلم فاجتهد رأيك واستشر أهل الصلاح والعلم.

ولو تتبعنا تاريخ "عمر" لعرفنا كيف كان أظهر الصحابة فى استعمال الرأى والاجتهاد وكيف كان للشورى فى عهده دور مهم.. وكيف أدرك أن الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد.. وكيف أن الحرية لديه هى حرية الحق الذى فوق جميع

القيود.. وكيف كان يرى الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم ويحدثوا بما فى أنفسهم، فإن أصابوا ربح الجميع وإن كان هناك خطأ تبينوه.

وأعظم مثال على عدل عمر وديمقراطيته حين طلب من العباس أن يترك داره لأنها قريبة من المسجد ليزيد مساحته بها لأنه سمع رسول الله يقول بذلك قبل وفاته، وأن يعوضه بأفضل منها ولكن العباس رفض وطلب منه أن يحتكموا أمام حذيفة بن اليمان ووافق عمر، ولم يستدع حذيفة بل ذهب إليه هو والعباس الذى قضى بعدم أخذ عمر لداره إلا برضاه وليس قهراً، فعدل عمر عن هذا.. وحينها نظر العباس إليه وقال: ألا تزال تريد أن تغلبنى على دارى؟

قال عمر: لا ...

قال العباس: ومع ذلك فقد أعطيتك الدار تزيدها فى مسجد رسول الله!

وكان عمر عالما فقيها، وقد قال عنه عبد الله بن مسعود: "كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا فى دين الله".

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

وقد قال رسول الله ﷺ مشيداً بفطنته الخارقة: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

ولعقله المضيء وبصيرته الذكية جعله الرسول مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:

" إنى لا أدرى ما مقامى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى، أبى بكر وعمر".

وكانت المظاهر العابرة لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين. فحين سمع واحداً يطرى آخر ويمتدحه قائلا، إنه رجل صدق فيسأله عمر: هل سافرت معه يوماً..؟

يقول الرجل: لا.

- هل كانت بينكما خصومة يوماً..؟
- لا..
- هل ائتمنته يوماً على شيء..؟

- لا

فيقول عمر: "إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه فى المسجد ويخفضه"..!!!

إنه عمر هذا الإمام الورع التقى لا يرى فى رفع الرأس وخفضه فى المسجد كافيا للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينا لشأن العبادة، ولكن إحاطة بأسرار النفس البشرية.. فهو فى معرفته بالناس. لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم إنما يُطل على الشخصية كلها، فالعبادة عنده تعنى استواء الشخصية كلها وكانت التقوى عنده قوة وطهر وسعة حيلة وتفوق.

وكان يدرك "عمر" بفطنته أن الفضيلة ليست إنسحابا من الحياة خوفا من الفتنة، بل هى مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة.. وفى هذا يُسأل: أيهما أزكى وأفضل – رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهى الإثم، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم؟

فيجيب عمر: "الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم".

وكان من الممكن أن يفتى فى قضيتين متماثلتين بفتاوى مغايرة فإن سئل عن السر فى هذا يقول: "ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى".. أى أن ظروف القضيتين مختلفة، وإن تماثلت الوقائع. فهو لا يضع فتاواه فى قوالب جامدة بل كان يتعامل معها بحسب الظروف والأسباب التى تستجد أو تنقص، فمثلا نراه ينهى حكما شرعيا كان قائما فى عهد الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ ولايزال منطوق هذا الحكم آية تتلى فى كتاب الله.. وهذا الحكم، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم.. وهؤلاء هم من دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف أو بغير اقتناع ، ففرض القرآن لهم فى بيت المال حظاً يأخذون منه الزكاة تألفاً لهم حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين.. وقلب عمر وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال:

" لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف .. أما اليوم فقد أعز الله دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً".

وهكذا نرى أن عمر قد طور فى هذه الواقعة التشريع ليتناسب مع الوضع الجديد.

وأمثلة أخرى توضح إعمال العقل قبل إبداء الرأى:

حينما جيء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقابا محتوما.. ويرسل عمر يستدعى الشاهد..ولا يكاد يراه مقبلا حتى تأخذه رهبة.. وحين تترسخ خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول:

"أرى رجلا أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين".

ويقدم الشاهد، ويقول: لم أر شيئا يوجب الحد.. ويتنفس عمر الصعداء.

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظانا أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلانا وفلانة يتعانقان وراء النخيل، فيمسك عمر بتلابيبه، ويعلوه بمخفقته، ويقول له بعد أن يوسعه ضربا:

"هلا سترت عليه، ورجوت له التوبة، فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة" !!

وإنه ليوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول:

" هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله أن يتوسع عليه، ولاتكونوا عونا عليه للشيطان"..!!

ويأتيه يوما رجل يستفتيه قائلا:

– إن ابنتى كانت قد أصابت حداً من حدود الله، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم تابت بعد ذلك توبة حسنة. وهى اليوم تخطب إلى قوم. أفأخبرهم بالذى كان..؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكى:

"أتعمد إلى ماستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، اذهب وانكحها نكاح العفيفة المسلمة".

وعلى الرغم من أنه كان شديد الوطأة، شديد البأس إلا أنه كان شديد الذكاء

أيضاً ولايقضى بعواطفه بل يستعين بهذا الذكاء.. فطبيعى أنه ينفر من الإثم ولكنه يمحص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ويضع القاعدة الذهبية التى تقول:

"لأن أعطل الحدود فى الشبهات، خير من أن أقيمها فى الشبهات"..!!

وفى إحدى الليالى وكان عاسا فى المدينة.. سمع سيدة تشكو بثها وحزنها لغياب زوجها، وتبين عمر أن زوجها مجند فى أحد جيوشه وعند الصباح ذهب لابنته حفصة وسألها:

يا حفصة. كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفد مع الشهر الرابع صبرها.

فيسن من فوره قانونا، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر من أربعة أشهر.. ويرسل لزوج السيدة يستدعيه من فوره..!!

ويسمع شيخاً كبيراً يبكى فى شعر جزل ولده الوحيد الذى طال غيابه عنه.. ويسأل عمر فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فوراً.. ثم يسن قانونا ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما..!!

وهكذا كان يستمد قوانينه من حاجة الناس ومن واقع الحياة.

ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة.. وهذا حق ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائما،ولابد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يعزل عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به، فلربما يجىء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.. ويقول عمر:

"ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته أو أخفته، أو حبسته أن يقر على نفسه"..!

وقد كان يأمر قواد جيوشه ألا ينزلوا عقابا بجندى حتى "يطلعوا من الدرب قافلين".

فكان يرى أنه إذا ارتكب جندى خطأ ما، فلتحقق الواقعة والمسئولية ولكن توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مرجأ حتى يغادر الجندى بلاده ويعود لوطنه ويعلل هذا بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى لصفوفهم لو أنزل به العقاب.

• وإنه ليجاء إليه يوما بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزَينة؟ فلايكاد يراهم صفر الوجوه، ضامرى الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء..؟

قالوا: حاطب بن أبى بلتعة.

قال: إلىَّ به.

فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء..

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم – لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك!!

ثم سأل صاحب الناقة:

– يا مزنى، كم تساوى ناقتك؟

قال: أربعمائة..

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة..!!

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها..!!

وهكذا إذا تتبعنا ما كان يسنه عمر من قوانين وما كان يطلقه من فتاوى فلن يتسع لنا المجال لكى نرصده جميعا والأمثلة كثيرة وعديدة فهناك كتبه لقواده وتوجيهاته العسكرية وكتبه لولاته..

وقبل أن يتسنى لنا أن نختم الحديث فى هذا الشأن لابد أن نذكر مثالين يعبران عن مدى ذكائه وبساطته ودعابته:

فحين يبصر امرأة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته.. ويطردها ويقول: "إنها لاتبكى لشجونكم وإنما تبكى بدراهمكم..".

ويسأل أحد أولاد هرم بن سنان الذى خلده بشعره، زهير بن أبى سلمى، فيقول له أنشدنى بعض مدح زهير أباك. فينشده فيقول عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول..

يجيبه الرجل: ونحن والله. إن كنا لنحسن له العطاء..

فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقى ما أعطاكم..!!

وفى حديث لعمر أخرجه آدم بن أبى إياس فى "العلم" عن الأحوص بن حكيم ابن عمير العبسى قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أمراء الأجناد: "تفقهوا فى الدين، فإنه لايعذر أحد باتباع باطل وهو يرى أنه حق، ولا يترك حق وهو يرى أنه باطل[1]".

رحم الله عمر رحمة واسعة فمن حسن حظ البشرية أنه واحد منها، لقد ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه، ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله فريداً متميزاً لا فى بلده فقط ولا فى عصره وإنما ملء كل زمان ومكان.

* * *

(١) كنز العمال ج ٥ ص ٢٢٨.

عثمـان بـن عفـــان - رضى الله عنه -

هو عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، وقد جاء إسلامه سماحة وحياء.. لاحياء من أصدقاء مقربين، بل حياء من الله الذى كان يرى آيات وجوده تلمع فى وجدانه وتهز مشاعره.. وحياء من رسوله الذى كانت آيات صدقه تملأ الأنفس الصافية تقبلا ويقينا حتى زكاه الرسول قائلا:

"أصدق أمتى حياء، عثمان"!! وقد قال عنـه الرسـول ذات يـوم لعائشـة: ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة".؟!! ودائما ما كان الرسول ﷺ يشيد بهذا الحياء كأنما يرفعه قدوة ونبراسا..

وقد كان إسلام "عثمان" مبكراً، فهو أحد الخمسة، أو السبعة الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام.. تاركا حياته المستقرة الممتلئة الآمنة إلى فراغ مجهول تتهدده المحاذر والأخطار..!!

وقد والى عمه "الحكم بن أبى العاص" تعذيبه مما كان يزيد إصرار عثمان وتمسكه.

وحين نمت أعداد المسلمين الذين دخلوا فى دين الله وأوغلت قريش فى تعذيبها واضطهادها أمرهم الرسول بالهجرة للحبشة حيث كان على رأسها يومئذ ملك عادل.. وكان "عثمان" أول مهاجر إليها، ومعه زوجته "رقية" بنت رسول الله، وكان الرسول قد زوجها له بعد إسلامه.

وحين ودعهما الرسول أخذ يقول: "إنهما لأول من هاجر إلى الله، بعد نبى الله لوط". وتوالت هجرة "عثمان" فقد عاد لملكه ثم هاجر للمدينة.. وكانت كلمات الرسول التى وصفته بأنه " أول مهاجر إلى الله " تهز أشواقه إلى الله، وتشحذ تصميمه على أن يحيا دائما فى مستوى هذا الوصف وهذا التكريم.

ولقد تنازل لإسلامه ولهجرته عن جاهه، وعن ماله وكان يبدو بعطائه وسخائه وكأنه الممول الوحيد للأمة الناشئة الجديدة، ويتضح هذا من عدة أمثلة:

أولـها: عندما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بهـا حتى فاجأتهم مشكلة الماء، وكان بها عين تفيض بماء عذب طيب المـذاق تدعى

"بئر رومة" ويملكها رجل يهودى ويبيع ملء القربة بمُدّ.. وتمنى رسول الله لو يجد بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن.. وسارع عثمان لتحقيق تلك الرغبة وعرض على اليهودى شراءها فأبى فساومه "عثمان" على نصفها واشترى النصف باثنى عشر ألف درهم على أن تكون لليهودى يوما ولعثمان يوما وحين وجد اليهودى نفسه وقد خسر سوقه التى كانت رابحة فعاد يعرض على "عثمان" أن يشترى منه النصف الثانى، فاشتراه.. وفاضت البئر بمائها العذب تروى أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب.

ثانيها : عندما زاد عدد الداخلين فى الإسلام وضاق بهم المسجد تمنى رسول الله ﷺ لو يجد من بين أصحابه من يشترى الرقعة المجاورة ليزيد بها المسجد رحابة واتساعا فما كان من عثمان إلا أن ذهب لأصحاب ذلك المكان واشتراه بثمن باهظ قدره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً.. وفعل ذلك ثانية بعد فتح مكة واشترى داراً ملاصقة للمسجد بعشر آلاف دينار للتوسعة أيضاً.

ثالثها: فى غزوة "تبوك" حينما تعرض الجيش لعسرة ولم تكف تبرعات المسلمين لإعداده ، وحينها نظر الرسول إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيأوا للقتال وقال: "من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له"..؟؟

وما كاد "عثمان" يسمع نداء الرسول هذا، حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان.. وقام بتجهيز الجيش كله، حتى لم يتركه فى حاجة إلى خطام أو عقال..!!

وحينما علم الإمبراطور الرومانى بخروج الرسول وأصحابه غادر دمشق نافضا يديه من محاولته اليائسة ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمده به "عثمان" الذى لم يطالب باسترجاع شىء مما دفعه سواء أموالا أو بعيراً أو خطاما.

وقد سمى بذى النورين لأنه تزوج ابنة الرسول "رقية" ولما توفاها الله زوجه ابنته "أم كلثوم" وحينما انتقلت للرفيق الأعلى أسف الرسول ﷺ قائلا: "لو أن لنا ثالثة لزوجناك إياها".

ورجل فى ثراء عثمان وجاهه إلا أن هذا لم يغره لمباهج الدنيا، بل كان يقضى نهاره صائما وليله قواما، وكان يتفجر قلبه رحمة وحنانا حتى قال عنه رسول الله ﷺ :

"لكل نبى فى الجنة رفيق"

"ورفيقى فى الجنة عثمان.."؟؟

وهكذا قد كان فى العبادة واحداً من أفذاذها المعدودين، وبطلا من أبطالها المبرزين.

وحين تولى "عثمان" ﷺ الخلافة جاء على أثر خليفتين ليس لهما نظير وبصفة خاصة جاء بعد عشر سنوات من تولى عمر الخلافة وما فرض على المسلمين من منهج صارم وعدل مكين وتحميله لولاته وعماله على مثل ما حمله على نفسه من زهد وتقشف وعناء.

كما جاء والدولة تتسع رقعتها بغير حساب.. ويدخل تحت رايتها أجناس كثيرة متباينة الطبائع والغايات..

وأيضاً قد فتح على المسلمين فتحا عريضا بحيث أصبحت دخولهم من التجارة، وأنصباؤهم المشروعة من الفيء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الأثرياء وكبار الأثرياء.

وقد كان "عمر" ﷺ يرى إقبال الدنيا وهى فى بدايتها فيرتجف إشفاقا على المصير.. ويقول: "إن للمال ضراوة كضراوة الخمر"..

ويذكر قول الرسول ﷺ لأصحابه يوما:

"والله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها".

ولكن لو نظرنا لموقف "عثمان" ﷺ... من مشاكل الثراء سنجده يختلف فى التقدير وفى النتائج عن موقف سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فبينما الاثنان متفقان على أن الثراء المتفاقم يشكل خطراً على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد والذين زين لهم دينهم أن يكون زاد أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، نجد نهجيهما فى مقاومة هذا الخطر يختلفان.

فعمر كان يركز على قمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء ويقاوم الاستسلام لطيبات الحياة الدنيا.. فهو يبدأ هذا القمع مع نفسه وأهل بيته وعشيرته، ثم مع ولاته وعماله..

أما "عثمان" ﷺ كان يرى أن المال كأنما خلق للاستمتاع بالحياة مادام الثراء حلالا والاستمتاع مشروعا فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها، لا فرق بين الأمراء والولاة والعامة.. وهى وجهة نظر تتفق مع نشأته وسجاياه.. فرأى أنه ليس من حقه أن يعزل واليا رغد عيشه وترفهت حياته – كما كان يفعل عمر – مادام فى استمتاعه هذا لا يجترح منكراً ولايقارف إثما.

وبالطبع هو كخليفة له الحق فى اختيار الأسلوب الذى يمارس به سلطته.. وقد كتب لولاته وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات والأمناء على بيوت المال، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على طاعة الله ورسوله ويحضهم على اتباع السنة وترك الإحداث والابتداع".

وحين رأى بيت المال عامراً ممتلئا، زاد فى عطاء الناس، واتخذ فى المسجد سماطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وأبناء السبيل.

ولكن للأسف لم يكد يستقر فى منصبه ويتهيأ لإنجازاته حتى فوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقض على الدولة من كل مكان.. ولقد أغرى زعماء تلك الفتن ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل فى السبعين.. وقد زاد من اشتعال تلك الفتن أيضاً ما أشيع من أن الإسلام قد انتهى بمقتل عمر، وأن الفوضى قد سادت البلاد.

وعلى الفور أصدر أوامره بإطفاء النار وقهر المرتدين.. بل ليس ذلك فحسب، بل أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد.. حتى لا تبقى أطرافا للدولة يسهل عليها التمرد فيما بعد.

وقد انتصرت جيوش المسلمين ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة وكأنها أبواب السماء فتحت بماء منهمر.

والخليفة الكهل الذى كانت سنه قد بلغت السابعة والسبعين رابض فى المدينة ينعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه.. وقد أخلفت كل الظنون للخليفة الذى أساء أعداء الإسلام به الظنون!!

ولم يشغله الجهاد والغزوات عن اهتمامه بالعمارة، فراح يجمل المدينة، ويزيد فى بناياتها وعمارتها، مبتدئا بمسجد الرسول ﷺ، فوسع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة، واتخذ عُمدُه من الحجارة المرصعة.

وكما استطاع أن يجابه قوى الشر الزاحفة على الإسلام تريد أن تطفئ نوره، فقد بهرنا أيضاً إنجازه العظيم فى جمع المسلمين على مصحف واحد، حفظ القرآن بين دفتيه إلى يوم الدين.

ولكن لم تسر السفن، كما تشتهى الأنفس، فسرعان ما بدأت الفتن تشتد من جديد، وأخذ المتآمرون يستغلون أخطاء الخليفة فى التشهير به ومن تلك المآخذ..

قد أخذوا عليه أنه عزل نفراً من الصحابة ووضع مكانهم أقرباءه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم لمستوى الولاية على المسلمين.

أما عن الأموال العامة.. فقد قيل إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم، فاستحوذوا على ماليس لهم بحق.

عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة وما اتخذه من إجراءات عنيفة ضد بعضهم.

والمأخذ الرابع هو موقفه من بعض مسائل الدين.. إذ كان فيها اجتهاد خاص.

ويهمنا فى هذا الصدد المأخذ الرابع وهو موضوع كتابنا عن الفتوى والاجتهاد.. وكيف راحوا يتصيدون للخليفة ما حسبوه بسوء تدبيرهم طعنا سينال من ورع الخليفة وحُسن طاعته لله ورسوله.

فقالوا: إن الخليفة وحَّد المصاحف كلها فى مصحف واحد، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها وهذه خطوة باركها جميع الصحابة، حيث إنه حينما جمع الصحابة الذين اختصهم بجمع المصحف بكتابته على حرف واحد بعدما أتاه "حذيفة بن اليمان" طالبا منه ذلك، وخاصة بعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة لكل منها لهجته ولسانه، وقد أحس الاختلاف فى قراءته مصدر خطر عظيم يهدد القرآن ذاته، ولقد ظهر هذا الخطر جليا فى الواقعة التى شهدها "حذيفة" إذ نشب خلاف مفزع بين أهل الشام وأهل العراق.

كان أهل الشام يقرأون على قراءة المقداد بن الأسود وأبى الدرداء.

وكان أهل العراق يقرأون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى.

وتعصب كل من الطائفتين لقراءته، وكاد الخلاف يُمس نزاعا.. فصداما. وحين فرغ "حذيفة" من غزوته امتطى راحلته وراح يسابق الريح للمدينة ليعرض هذا الأمر على الخليفة قائلا:

يا أمير المؤمنين..

"أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف فى كتابها كما اختلف الذين من قبلهم فى كتبهم".

ولم يتوان الخليفة لحظة وأرسل من فوره لأصحاب الرسول وشاورهم فى الأمر الذى وافقوا عليه، ومن ثم استدعى جمع من الصحابة ممن شاركوا فى جمعه من قبل فى عهد أبى بكر وعمر وشرح لهم مهمتهم وأوصاهم إذا اختلفوا فى شىء أن يكتبوه بلغة قريش.

وعندما أنجز الأصحاب عملهم الجليل، أمر الخليفة أن ينسخ عددا من المصاحف، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحفا.

فما عساه يفعل بالمصاحف الأخرى، وبالألواح التى كانت لاتزال موجودة عند بعض الصحابة حاملة عدداً من الآيات؟

لقد جمعها جميعا وأنهى مهمتها.. مفسحا مكانها للمصحف الواحد الجامع يلتقى المسلمون حول آياته المباركات عبر القرون.. فما الخطأ الذى ارتكبه الخليفة فى ذلك، وقد تم هذا العمل بمباركة الصحابة أجمعين؟!

• ثم قالوا: إن الخليفة أتم الصلاة بمكة أثناء حجه، بينما كان الرسول وصاحباه يقصرون الصلاة.. مع أن قصر الصلاة فى السفر رخصة لاواجب وإذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة فلا حرج عليه، وقد أجاب الإمام "على" وهو يحاور المتمردين: "إن الخليفة قد تأهل بمكة ونوى الإقامة بها، فأتم صلاته"..

• وقالوا أيضاً : إن الخليفة لم يُقم حد القتل على "عبيد الله بن عمر" وكان

"عبيد الله" قد انطلق فى ثورة غضبه لمقتل والده أمير المؤمنين"عمر بن الخطاب" مقتل طفلة لأبى لؤلؤة المجوسى الذى اغتال أمير المؤمنين، وكذلك قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تآمره مع أبى لؤلؤة..

صحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص، ولكن الخليفة اجتهد فى القضية اجتهادا كان مبعثه تقديره للظروف التى دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للثأر لأبيه، وللإسلام.. كما أنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حزنين وكارثتين – الأولى: مقتل "عمر" غدراً، والثانية: قتل ولده قصاصا، ثم إنه لم يطلق سراح "عبيد الله" مهدراً بذلك الدم الذى أراقه.. بل استبدل الدية بالقصاص، ودفع لأولياء الدم دية سخية، وكبيرة..

• وقالوا إنه قد أعاد إلى المدينة الحكم بن أبى العاص، وكان الرسول ﷺ قد نفاه منها..

ولقد أجاب الخليفة عن هذا، بأنه كان قد شفع له عند رسول الله ﷺ ووعده الرسول بالعفو عنه بعد حين.. ثم إن الخليفة لم يرده إلى المدينة إلا بعد أن زالت أسباب نفيه، إذ كان قد أقلع وتاب عما كان استحق من أجله عقوبة النفى.

• وقالوا الكثير عن الخليفة الذى واجههم ولم يقف موقف المستعلى على الرأى، ولا المستنكف عن الحق، بل وقف على مَلإٍ من المسلمين فى يوم الجمعة يعترف بالأخطاء التى وقعت ويرفع ضراعته إلى الله مستغفراً وتائبا.. باكيا ومبكيا جميع الذين كانوا له يستمعون وينصتون..!!

وأمام موقفه هذا، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة. ذلك الهجوم الذى كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر.

وكان الخليفة "عثمان" ﷺ.. قد بلغ الثمانين من عمره ولاتزال خصاله وفضائله غضة فتية، تقوده على طريق اقتناعه ومبادئه.

ولكنه لم يسلم من الفتن والمؤامرات التى كانت تحاك حوله.. ولم تمض أيام قليلة حتى عاد الثوار زاحفين على المدينة بعدما كان قد أقنعهم بالعودة فى المرة الأولى على ابن أبى طالب على أن تلبى مطالبهم فيما بعد متحججين بأنهم

اعتقلوا شخصا فى الطريق لعودتهم معه كتاب ممهور بخاتم الخليفة وفيه أمر لوالى مصر بقتلهم وصلبهم..!! وهذا بالطبع محض افتراء لأنه ليس من خصال الخليفة هذا..

واشتدت نار الفتنة وحاصر الثوار منزل الخليفة وأحكموا حصارهم حتى أنهم منعوا زواره.. ومنعوه الماء.. ونسوا أنه هو من اشترى "بئر رومة" من حر ماله فى أوائل أيام الهجرة.. وتطاول عليه بعض زعمائم وتوقحوا عليه بشتائم بذيئة على ملإ من الناس..!!. ولم يكفهم تهجم أحدهم عليه وهو فوق منبر رسول الله ﷺ يتهيأ لإلقاء خطبة الجمعة..!! لقد غرهم حلمه وأغرتهم مصابرته.. وقد قال لهم من قبل: "... إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمرى.. أما والله لئن فارقتهم ليتمنون لو أن عمرى طال فيهم كل يوم بسنة.. وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة"..

وحين اشتد الحصار دخل عليه "زيد بن ثابت"، وقد رأى الثوار يتنادون لحصار داره فيقول له:

"يا أمير المؤمنين.. هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين.."

فيجيبه الخليفة الرحيم:

"أما القتال، فلا.." !!

ويصيح فى الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح: "إن أعظمكم عنى غناءً، رجل كف يده وسلاحه"..!!

وحين يرى أبا هريرة شاهراً سلاحه فى اهتياج شديد، يدعوه إليه ويقول له:

"أيسرك أن تقتل الناس جميعا وأنا معهم..؟

"أما إنك والله لو قتلت رجلا واحداً، لكأنما قتلت الناس جميعاً".

وحين يعلم أن عصبة كبيرة من شباب المسلمين وعلى رأسهم الحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير، وقد أخذوا مكانهم لحراسته وشهروا سلاحهم يتفطر قلبه أسى، ويدعوهم إليه ويتوسل إليهم قائلا:

"أناشدكم الله وأسألكم به، ألا يراق بسببى مِحْجَن دم".

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة وخشوا أن تدور عليهم الدائرة، فأمروا بمهاجمة الدار.. وما هى إلا دقائق حتى كانت الخطة قد أنجزت، وفجأة رأى الخليفة أمام أولئك المتسورين ولم يبال بهم ، فقد كان يقرأ فى كتاب الله واستمر فى قراءته..بينما اندفع الجناة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء.

لم يقاوم، ولم يتحرك من مجلسه، ولم يتخل عن مصحفه، ولم يزد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الآثمة كفه فأصابتها فى صميمها:

"والله إنها لأول يد خطت المفَصّل.. وكتبت آى القرآن".

وحين رأى دماءه تتفجر، فتضمخ أوراق المصحف، طواه حتى لاتطمس الدماء بعض آياته، ثم ضمه وهو يسلم الروح إلى صدره.

رحم الله "عثمان" لقد تعب طويلا، خلال اثنتى عشرة سنة قضاها فى الخلافة حاملاً أعباءها ولأواءها.

ويكفينا قول "عبد الله بن عمر" – رضى الله عنهما–، حينما كان يتلو قول الله تعالى :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[1].

ثم يقول: إنه "عثمان بن عفان"..

* * *

(١) سورة الزمر الآية ٩.

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول، زوجه رسول الله ﷺ فاطمة ابنته بأمر من السماء، وقال لها:

"أما والله زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة" ولما نزلت الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1]. دعا النبي ﷺ عليا وفاطمة وابناهما الحسن والحسين وضمهم إليه وقال: "اللهم هؤلاء أهلي".

وحين آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار اختص علي - كرم الله وجهه- بأخوته.

وقد كان مضرب المثل في البطولة والشجاعة، اختاره النبي ﷺ لينام في فراشه في الليلة التي عقدت قريش فيها أمرها على قتله ﷺ فاختاروا من كل قبيلة رجلا جلداً فاتكا، واجتمعوا عند بابه ليلا حتى إذا أصبح الصباح وخرج من باب الدار انقضوا عليه وضربوه بسيوفهم المشحوذة ضربة رجل واحد.

ولنا أن نتخيل كيف أمضى فتى الفتيان هذه الليلة.. فلابد أن يكون بين جوانحه قلب أسد لا يخشى البأس!

وكم كانت له من بطولات احتلت حيزاً كبيراً في صفحات المجد والشرف ومنها مواقفه الجليلة في يوم خيبر وأحد وغيرها من المشاهد.

لقد كان - ﷺ وأرضاه- نموذجا في كل صفات الخير، في الشجاعة وفي الكرم وفي الوفاء وفي التواضع وفي الزهد وفي العلم وفي اللين وفي الرفق.. في كل شيء كان على سباقا.. وكيف لا يكون كذلك وقد تربى في بيت النبوة ونما وترعرع في ظل معلم البشرية وهاديها سيد الأنبياء والرسل ﷺ.

وقد وصف الإمام النووي عليا - كرم الله وجهه- بقوله:

"هو أحد العشرة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وقد اختلف العلماء في أول من أسلم من الأمة، فقيل خديجة ، وقيل أبو بكر وقيل علي.. قال ابن المسيب: ما كان أحد

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦١.

يقول: سلوني غير على. وقال عبد الله بن عباس: أعطى علىّ تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم فى العشر الباقى"(١).

ووصفه الإمام المناوى فى طبقاته بقوله:

"هو باب مدينة العلوم والمواهب، ولىّ المتقين، وإمام العادلين.. ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد ﷺ النبوة.. وكلامه أفرد بعدة أسفار كبار، وأما ما نقل عنه من التقلل والتزهد، وما اشتهر به من الترهب والتعبد فكثيــر.. وقال ﷺ: "والذى فلق الجنة، وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلىَّ ألاّ يحبنى إلا مؤمن، ولايبغضنى إلا منافق" (رواه مسلم).

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: "كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليّا.."(٢).

لقد التقت شخصية البطل والرجل والمسلم فى شخصية الإمام على أصدق لقاء.

لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم فى حياة "على" على الإطلاق فإذا رأيناه يبارز خصما مثلا؛ فليس البطل المتمكن هو وحده الذى يبارز بل إن رجولة الرجل؛ وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها..!!

وحين أباح الرسول ﷺ للمسلمين أن يستعملوا رأيهم واجتهادهم الخاص إذا عرضت لهم مسألة لم يجدوا لها جوابا فى القرآن أو الحديث.. وقد أقر "على" على التشريع بالاجتهاد عندما بعثه إلى اليمن، فقد روى أنه ودعه بقوله: "اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه". وأوصاه ألا يقضى بين خصمين حتى يسمع كلام كل منهما، وقال له: "إنك إن اجتهدت فأصبت فلك أجــران وإن أخطــأت فــلك أجر واحد".

وقد عرضنا لبعض الأمثلة فى اجتهاد "على" فيما سبق.

وقد تعرض الإمام " على" لمحنــة كبرى بــدأت بتعرضــه لموقعــة الجمــل وما تحمله من معاناة نفسية ومعنوية حين خرج عليه أحب الصحابة لقلبه طلحــة والزبير- رضى الله عنهما- والسيدة عائشة - رضى الله عنها- يطالبــون بــدم

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات.
(٢) الكواكب الدرية.

عثمان، وخروجه إليهم فى محاولة لإخماد تلك الفتنة قبل أن يستشرى أمرها ولكنهم كانوا قد سبقوه إلى البصرة وقامت معركة بين الفريقين أشعلها الكارهون للإسلام وأحكموا مؤامرتهم واستمر القتال سبعة أيام وقتل يومئذ الصحابيان الجليلان كما قتل من الفريقين ما يقرب من عشرة آلاف.

وعلى الرغم مما عانى، فبعد انتهاء المعركة قام الإمام "على" بتجهيز أم المؤمنين – سيدتنا عائشة- بكل ما تحتاج إليه فى رحلة العودة إلى المدينة، وشيعها بنفسه وسير معها بعض أولاده ورجاله.

واستمر يعيش محنته وخاصة بعد تعرضه لخدعة التحكيم من معاوية بن أبى سفيان على يد عمرو بن العاص ومحاولة خلعه وحين عصاه جنوده وشيعته ومحبيه، وإعلان فريق كبير من الجيش عدته حوالى اثنى عشر ألفا التمرد ورفع راية العصيان رافضين نتيجة التحكيم وراحوا يرددون القول: لا حكم إلا لله.

وبذا ظهر الخوارج الذين شقيت بهم الأمة طويلا ولاتزال، والذين اعتقدوا أنهم وحدهم المسلمون حقاً، وأن جمهور الأمة قد ارتدوا للكفر فاستباحوا دماءهم وأموالهم.

وما أن فرغ أمير المؤمنين "على" من الخوارج وأراد السير لأهل الشام فإذا برجاله يستمهلونه بحجة الاستعداد للقتال وراحوا يتسللون من معسكره خفية، ومن بقى مع الإمام راحوا يتقاعسون عن القتال ويتدافعون بطريقة القهقرى وهو يعظهم بكل موعظة، ويستحثهم بأبلغ القول، ولكن لا حياة لمن تنادى!!

وفى تلك الأثناء تمكن معاوية ﷺ من الاستيلاء على مصر، ومن بعدها الحجاز واليمن..

ولعل خطب "على" أبلغ دليل على ما كان يشعر به حينئذ.. ومن خطب "علي" ﷺ التى تقطر مرارة وأسى بسبب خذلان شيعته وعصيانهم له فى أخريات أيامه والتى أمر أحد أصحابه بقراءتها على أهل الكوفة فى المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة وقال فيها:

".. أما والله لوددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم ، وقبضنى إلى رحمته

من بينكم.. ولوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدرى غيظا، وجرعتمونى الأمرين أنفاسا، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! هل كان فيهم رجل أشد لها مراسا، وأطول مقاساة منى؟؟.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا اليوم قد عدوت الستين.. ولكن لا رأى لمن لايطاع!!"

وهكذا فالدنيا – لأولياء الله وأحبابه– تعب ونصب، وقد قال الحبيب ﷺ: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله".

وكان ﷺ قد أخبر "على" بتفاصيل قتله حتى عرّفه من سيقتله وفى أى ساعة فكان – كرم الله وجهه– إذا لقى عبد الرحمن بن ملجم يشير إليه قائلا لأصحابه:

– هذا قاتلى.

فإذا قالوا له:

– ألا تقتله؟

يقول لهم:

– ومن يقتلنى إذن؟

وقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ حين قال له يوماً:

– "يا على، من أشقى الأولين وأشقى الآخرين؟"

فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: "أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذى يطعنك يا على". وأشار ﷺ إلى الموضع الذى سيطعن فيه.

وهكذا وكما رأينا تحققت النبوءة وقتل رحمه الله بسيف عبد الرحمن بن ملجم..

رحم الله "على" ﷺ فلم يبق أحد من المسلمين إلا بح صوته ترحما عليه، وقد وقف أحد كبار الصحابة وهو الصحابى الجليل "عبد الله بن عمر" يقول والدموع تبلل لحيته: "ما أجدنى آسى على شىء فاتنى فى حياتى، إلا على أنى لم أقاتل مع "على" الفئة الباغية".

وأحس المسلمون حينئذ بفداحة ما فعلوه وخاصة فى العراق الذين أحسوا أنهم

ضالعون فى الإثم وشركاء فى الوزر، يوم تخلوا عنه وتركوه وحده فى الفضاء الموحش!! وراحوا يبكون، ويولولون..

رحم الله الإمام على رابع الخلفاء الراشدين وخاتمهم كما كان رسولنا الكريم ﷺ خاتم الأنبياء.. رحم الله إمامنا فكان نعم الإمام الفقيه العادل الشجاع العالم الرحيم..

والذى فى إسلامه كان نموذجا عظيما مكتمل الشكل والجوهر فكان إسلامه عبادة، ونسكا.. جهاداً، وبذلا.. ترفعاً، وزهداً، فطنة وورعاً.. سيادة، وتواضعا.. قوة، ورحمة.. عدالة، وفضلا.. استقامة، وعلما.. بساطة، وتمكنا.. ولاء، وفهما.

* * *